المقدّمة العامّة

الصليب المقدس في الليتورجيا

مقدّمة

ببركة الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس نفتتح سلسلة محاضرات معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس – الكسليك لهذا العام ٢٠٠٥، حول موضوع «الصليب في الليتورجيا»، مقدِّمين هذا المجهودَ العلميَّ الليتورجيَّ هديةَ محبةٍ إلى مَن ارتفع على الصليب، فجعله سلّمًا نرتقي به وعليه إلى الآب، وجسرَ عبورٍ نحو حريّةٍ وكرامةٍ لا يدرك كنهَهُما إلاّ مَن، في إثر مَن عُلِّق على الصليب وعلى خطاه، عشقَ حَمْلَ الصليبِ كلَّ يومٍ ليتبعَ يسوعَ في ثباتٍ معه ولا أرسخَ حتّى في محنته وآلامه وصَلْبه.

أيّها الكرام، ها قد بلغنا السنةَ العشرينَ في سلسلة المحاضرات التي أطلقها معهدُ الليتورجيا بمبادرةٍ من مديره آنذاك المرحوم الأباتي عمانوئيل الخوري، صاحبِ الأيادي البيضاءِ في الحقلِ الليتورجي. عشرون سنة مَرَّتْ، خلّفتْ وراءَها كَمًّا من المنشوراتِ الثمينةِ، هي ثمرةُ جهودِ أناسٍ ينتمون إلى مختلف العائلات الروحية، أحبُّوا الكنيسةَ، وقدّروا ليتورجيّاتِها، فانكبُّوا على البحثِ والكتابةِ، ففتحوا أعينَنا وأذانَنا على ما لم تكن عيونُنا قد رأتْه، ولا آذانُنا قد سمعت به. يُضافُ إلى هذا الإرثِ القديم الجديد نشرُ الأباتي يوحنّا تابت لنصوص الـ«بيت غازو الماروني» في السريانية وفي العربية، الأمرُ الذي يؤمّن لنا إمكانيةً جديدةً لاكتشافِ جذورِ ليتورجيّا الكنيسةِ المارونية، ومن خلالها وعن طريقِها إبرازِ لاهوتِها المخبوءِ فيها.

إلى هذا كلّه نضيف محاضرات هذه السنة حول «الصليب في الليتورجيا»، التي ستشكّل مدماكًا جديدًا في إعلاء الصرح الليتورجي في معهدنا.

١- الصليب من أداة إعدام إلى علامة الحياة

عندما نرى علامةً مكوَّنةً من خَطَّين، واحد عامودي والآخر أفقي، نعلم أنّه الصليب، أداة العذاب والإعدام أساسًا، وعلامة الحياة منذ موت يسوع معلّقًا عليه. لكنّنا نعلم أنّ الصليب كان أيضًا، وقبل المسيحيّة، بعيدًا كلّ البعد عن فكرة التعذيب والقتل؛ ففي مصر، كان الصليب علامة هيروغليفيّة مقدّسة وقديمة جدًّا، كان يُدعَى «أَنْخ»، أي «ملء الحياة»؛ في الهند، علامة الصليب موجودة منذ سنة ٣٥٠٠ ق. م. تقريبًا، كما أيضًا في الحضارة السابقة لكريستوف كولومبوس في أميركا، خاصّة في المكسيك والبيرو.

وفي الأبجديّة العبريّة الحرف الأخير هو «تاو»؛ بالنسبة إلى العبرانيّين كان لهذا الحرف طابع مقدّس، إذ كان يُعتَبَر علامة الله (رج حز ٩: ٤-٦)، وكان يكتب بشكل +، بالإضافة إلى أشكال أخرى قريبة؛ هذا ما تؤكّده اكتشافات الحفريات الحديثة في أورشليم، حيث نجد الصليب على مدافن عبرية وعلى أخرى مسيحيّة؛ هذا يجعلنا ندرك كيف أنّ الجماعة المسيحيّة الأولى لم تستصعب قبول هذه العلامة المسيحانية واستعمالها، ليس فقط كانت تذكّر بأداة العذاب التي عليها رُفع يسوع، بل أيضًا لأنّ الحرف الأوّل من كلمة «خريستُوس» (Χριστος) اليونانية له ذات الشكل (X، ولكن أيضًا +).

نحن إذًا أمام مجموعة من المعاني المتنوّعة للصليب؛ فالعلامة ذاتها كانت لها أبعادٌ عديدة تتماهى مع العلامة المسيحانيّة «تاو»، والحرف الأوّل من اسم المسيح في اليونانيّة (X)، وتذكّر بفصح يسوع، وبمجيئه الثاني في المجد.

سنة ٣٢١ حطّت هيلانة الملكة رحالها في أورشليم، حيث كان يسوع قد صُلب ومات، وراحَت تبحث عن خشبة صليب الرّبّ؛ وفي المكان الذي كان قد

شهد عملية الصلب أمرت وابنُها الأمبراطور قسطنطين بتشييد بازيليك القيامة الشهيرة، وبرفع صليب كبير من الذهب عليها. ومنذ تكريس البازيليك وتدشينها سنة ٣٣٥، راحت كنيسة أورشليم تعيّد لارتفاع الصليب في ١٤ أيلول، وتَواصَلَ العيد حتى أيامنا. لم يَعُد الصليب أداة تعذيب، لأنّ قسطنطين اعتبر الصَلب عملاً غير شرعيّ، وبالتالي محرَّم، فأضحى رمز انتصار المسيح.

٢- «أَلَم يكن ينبغي على المسيحي أن يقاسي كلَّ هذه الآلام ليدخل في مجده؟» (لو ٢٤: ٢٦)

للوهلة الأولى، الصليب هو «شكٌّ لليهود، وحماقة للوثنيّين» (١ كو ١: ٢٣). الصليب يحيّر؛ فأمام اليهود الّذين يطلبون الآيات، واليونانيّين الّذين يطلبون الحكمة، يبشّر بولس بمسيح مصلوب.

الصليب هو عار، ووسيلة تعذيب العبيد، وأداة إعدام؛ ومع هذا، «تَنازلَ يسوع، واتّخذ وَضعَ عبدٍ» (فيل ٢: ٦). بالنسبة إلى المفكّرين اليونانيّين وإلى الشرفاء الرومانيّين، كان من غير المقبول أن يأتي الخلاص من موتِ عبدٍ.

في تثنية الاشتراع نقرأ أنّ الصليب هو علامة اللعنة الإلهيّة (تث ٢١: ٢٢): «ملعون مَن عُلِّق على خشبة». ويؤكّد بولس أنّ «يسوع قد دفع الثمن ليحرّرنا من لعنة الشريعة، إذ أصبح هو نفسه لعنةً لأجلنا» (غل ٣: ١٣). عند أقدام صليب يسوع على الجلجلة، كان يُسْمَعُ تعييرُ الناس؛ ويلاحِظُ الإنجيليّون أنّ رؤساء الكهنة والجنود كان يسخرون من يسوع قائلين: «إذا كنتَ ملكَ اليهود، فخلّص نفسك» (لو ٢٣: ٣٧). لم يستطع التلاميذ وبطرس خاصّةً أن يقبلوا ويفهموا الإعلان الّذي قاله يسوع حول آلامه؛ في طريقه إلى الجسمانيّة، نبّه يسوع رسله إلى أنّهم سيشكّون في شأنه. هكذا تتمّ نبوءة سمعان الشيخ، لأنّ يسوع هو بالفعل علامة تناقض بصليبه.

نحن اعتدنا على صليب يسوع، على حمله وعلى رؤيته. لكنّ الصليب الّذي يسبّب الشكّ، هو الصليب الّذي نصادفه في العالم وفي الحياة الخاصّة، هو صليب حياتنا اليوميّة. لذا

نتلقّى رسالة يسوع الّذي يدعونا إلى حمل صليبنا كلّ يوم واتّباعه، وهنا تكمن دعوة المسيحي. ومع بولس يجب أن نقول: «ما نقص من آلام المسيح، أكمله في جسدي» (١ كو ١: ٢٤).

٣- الصليب سرّ خلاص

لقد أكّد يسوع على ضرورة صليبه لخلاص العالم: «من أجل هذه الساعة، أتيت» (يو ١٢: ٢٧)؛ «إنّ حبّة القمح الّتي تقع في الأرض إن لم تمت تبقى مفردة، ولكن إذا ماتت أتت بثمار كثيرة» (يو ١٢: ٢٤).

الصليب هو سرّ محبّة الله للبشر: «لقد أحبّ الله العالم إلى الغاية، حتّى إنّه جادَ بابنه الوحيد» (يو ٣: ١٦). الصليب هو الطاعة التامّة، وهو بالتالي نقيض خطيئة آدم. بهذا الجود الكليّ بحياته أعاد يسوعُ الخليقة إلى ما كانت عليه قبل السقطة، وأعاد توجيه ناظريها نحو الله. أمامه تجثو كلّ ركبة، لأنه، بقبوله الصليب، جثا أمام الله؛ هكذا صار الكلّ للمسيح، والمسيح لله.

خاتمة

إنّ الصليب المرتفع في وسط الكون، يصل الأرض بالسماء، ليعبر به مَن يحمله كلّ يوم إلى الحياة التي لا تزول. **لذلك**، ومنذ البدايات، اعتمد المسيحيّون الصليب رمزاً لهم ولإيمانهم، بعدما اكتسب معنًى جديدًا، على إثر رفع الرّبّ يسوع عليه؛ وأضحى بالتالي رمزًا لعمل الفداء، وعلامة خلاص وحياة؛ وراح فنّانو المسيحيّة من رسّامين ونحّاتين يبدعون في إبرازه؛ والموسيقيون يقدّمون له أعذب ألحانهم؛ والشعراء ينظمون له أروع قصائدهم؛ والأدباء يحرّرون له أرقى كتاباتهم؛ والمتصوّفون يَنشدون اتحادًا حميمًا به؛ واللاهوتيّون والبيبليّون وآباء الكنيسة يخرجون من مكنوناته أسمى المعاني، والليتورجيّون ينظّمون له أبهى الاحتفالات... هذا ما سيعمل محاضرونا الكرام على إبرازه وإتحافنا به. فلهم منّا كلّ امتنان.

الأب أيّوب شهوان

مدير معهد الليتورجيّا